اختلاف الآراء

في فلسفة أبي العلاء المعري

إن شخصية أبي العلاء المعري لهي من تلك الشخصيات العبقرية الكبرى المتعددة المزايا والصفات التي يصعب على الباحثين عنها — وإن لم يستحل — أن يدركوها إدراكاً كلياً وأن يحدّدوها تحديداً شاملاً .

فكذلك فلسفته . إنها متفننة النواحي متباينة الأطراف ، متناقضة المرامي ، فقلما تردد الناس في مذهب كتردّدهم فيها ، وقلما اختلف العلماء ، على تنوّع طبقاتهم ، في غابر الزمان وفي حاضره ، كاختلافهم فيها .

فاذا تأملنا في أولئك المختلفين من المتقدمين وجدناهم على ثلاثة أقسام تفرّعت إلى فروع . فريق من زندقه أو كفّره وفريق من حكم بصحة إيمانه واجتهد في الدفاع عنه إلى حدّ أنه أنكر فيه وجود فلسفة امتاز بها عما سواه وفريق من تحيّر في شأنه وما جرأ على شتمه ولا على تبريره فأمسكوا عنه وفوّضوا أمره إلى خالقه .

إن هؤلاء المتحيرين ، لقلة عددهم وخفة أهميتهم ، لا يستحقون أن نعتني بهم أدنى اعتناء ولكننا أردنا أن نتوسع بعض التوسع في الذين كفّروه ثم فيمن برّأه ، وذلك تمهيداً لتفهم فلسفته فنذكر اختلاف الناس في تعليلها .

***

إن أول من هاجمه مهاجمة منظمة كان الشيخ أبا الوفاء بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة في وقته والذي عاصر أبا العلاء بعض المعاصرة . تفقه ابن عقيل على القاضي أبي يعلى صاحب الأحكام السلطانية المشهورة وأخذ الأصول عن الشيخ ابن الوليد إمام المعتزلة في زمانه . ان ابن عقيل على ما يرويه لنا الحفاظ — شبّه أبا العلاء بابن الراوندي وأنه قال لناس ، زعموا أن أبا العلاء

أبدى إلحاده لعباً ومجوناً ، ما نصه : « وما الذي ألجأه إلى أن يقول في دار الاسلام ما يُكفر به الناس ؟ إن المنافقين مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه لانهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا وستروها وهذا أظهر الذي تسلط عليه به الناس وزندقوه والله إن ظاهره كباطنه . »

ثم اقتدى بابن عقيل الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الشهيرة والذي كان معظما لابن عقيل متابعاً لمعظم آرائه وإن رد عليه في بعض المسائل . ان ابن الجوزي عاب على أبي العلاء مبالغته في معاداة الانبياء ، وهو الذي قال : « زنادقة الاسلام ثلاثة ابن الراوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء وأشدهم على الاسلام أبو حيان لانه مجمج ولم يصرح » .

اقتفى أثر أولئك البغداديين الذين طعنوا في أبي العلاء ، من انتسب بالشام إلى مدرستهم التاريخية وفي طليعتهم الشيخ شمس الدين الذهبي فانه تكلم عن أبي العلاء في كتابين من كتبه الكبار أولاً في تاريخه الكبير الذي لم يُنشر إلى الآن . ثانياً في مختصره المفيد الذي طُبع في حيدر آباد إنه في كتابه الأول أطلق على أبي العلاء تسمية الزنديق واشتدّ في شتمه ولكنه في كتابه الثاني خفّف عباراته واقتصر على القول بأنه سيء العقيدة .

ولكن أبا العلاء ، فيما أرى ، ما لقي بالشام خصماً أشدّ طعناً فيه من الشيخ اسماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي الذي لازم الحافظ المزي وأخذ عن الامام الشيخ تقي الدين بن تيمية . انه ، في بدايته ، خصّص لأبي العلاء ترجمةً قيمة كفّره فيها ونسبه إلى فلسفة البراهمة ثم انه أبدى سوء ظنه بأبي العلاء أيضاً لما تكلم عن الشاعر المشهور بالعز الضرير وهو الحسن بن محمد بن نجا . كان هذا الشاعر من نصيبين فنشأ بإربل حيث اشتغل بعلوم الاوائل قال عنه ابن كثير ما نصه : « يُنسب إلى الالحاد وقلة الدين وترك الصلوات له شعر أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة في ترجمته وهو شبيه بأبي العلاء المعري قبحهما الله » .

* * *

كان لأبي العلاء من جهة أخرى أنصار انتصروا له ودافعوا عنه أشد الدفاع ويجب علينا أن نذكر في طليعتهم الشيخ كمال الدين ابن العديم الحلبي الذي توفي بالقاهرة سنة ستين وستمائة وأنه صنف لحلب تاريخاً مفيداً وأفرد لأبي العلاء ترجمة طويلة سماها كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري » فقد جزء كبير منها ونشرها لأول مرّة الشيخ العلامة المؤرخ المشهور راغب الطبّاخ في كتابه أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، أصبح كتاب الانصاف والتحري العمدة التي اعتمد عليها كل من دافع عن أبي العلاء فيما بعد .

فمن أشهر من حذا حذوه واعتمد على كتابه الشيخ زين الدين بن الوردي . ولد ابن الوردي بالمعرّة ونشأ وصنّف في عدة علوم . ترجم أبا العلاء في تاريخه المشهور ترجمة حسنة علينا أن نتوسع فيها بعض التوسع فان عواطف ابن الوردي نحو أبي العلاء مرت بثلاثة أطوار .

كان ابن الوردي في بادئ أمره متعصباً له لكونه من المعرة ولما شاهده في سيرته وشعره من غاية الورع والزهد ثم أنه بعد ذلك وقف على كتاب استغفر واستغفري فبغضه وأبعده عنه ثم وقف على اللزوميات فزادته بغضاً له ونفرة عنه لإفراط الشك والتشكيك المتضمن بها . ثم ان ابن الوردي ، في الطور الثالث من تطوره اطلع على كتاب ضوء السقط الذي أملاه أبو العلاء قبل موته بقليل فان هذا الكتاب أرجع ابن الوردي عن سوء ظنه بأبي العلاء إلى الحكم بصحة عقيدته قال : « فكان هذا الكتاب عندي مصلحاً لفساده موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده فانه كتاب يحكم بصحة إسلامه » . فعظم هذا الكتاب كل التعظيم لما يحتويه من العواطف الدينية السامية وقال في الختام ما يستحق الذكر . « وهو خاتمة كتبه والأعمال بخواتمها وقد يُعذر من ذمه واستحلّ شتمه فانه عوّل على مبادئ أمره وأواسط شعره ويُعذر من أحبه وحرّم سبّه فانه اطلع على صلاح سرّه وما صار إليه في آخر عمره من الانابة التي كان أهلها والتوبة التي تجبّ ما قبلها » .

* * *

هذا ولقد اختلف أولئك العلماء — وهم القليل من كثير ولكل واحد منهم مقام عالٍ في تاريخ الأدب العربي — اختلافاً كبيراً في فلسفة أبي العلاء وعقيدته فاذا أنعمنا النظر في هذا الاختلاف وجدنا له أسباباً معينة .

أولاً : إن أولئك المتقدمين كانوا أكثر اهتماماً بذمّ أبي العلاء أو بمدحه منهم تفهمه أو بالتحري عن حقيقة فكره فهم أقرب إلى المتكلمين منهم إلى المؤرخين وهم في ذلك على خلاف ما نحن عليه الآن فان تطور أساليب النقد والبحث عوّدنا التمييز بين التبرير المذهبي وبين التعليل التاريخي . وثانياً : نشأ هذا الاختلاف في فلسفة أبي العلاء عن تناقل داخلي يُحسّ به في أبياته نفسها في اللزوميات خاصة وفي جميع مؤلفاته عامة فهذا أمر من الأهمية بمكان يجب علينا أن نتوسع فيه بعض التوسع .

* * *

ان أبا العلاء انتقد الديانات كلها في أبيات عديدة مشهورة من اللزوميات أنكر النبوات حتى بالتصريح وهاجم رجال الدين على اختلاف طبقاتهم مهاجمة عنيفة متكررة عاب عليهم بأمرّ التهكم جهلهم ونفاقهم وتناقضهم في أهم مسائل الدين وتنازعهم بمذاهبهم على الدنيا وما فيها فشكّ وشكك في كل ماجاءت به الكتب المنزلة من البعث والثواب والعقاب ومن الأخبار المتعلقة بعالم الغيب وأظهر أيضاً ما كان يظنه مخالفاً للعقل في الشريعة من العبادات والمعاملات انه في كل ذلك تلون، وأي تلون ، بآراء الطبيب الفيلسوف أبي زكريا الرازي الذي تعدى الحدود في نقض الديانات والذي كان لكتبه الهدامة أوسع الانتشار بين غلاة الباطنية .

ولكنه مع ذلك ، مهما ساء ظنه بالرسل والانبياء ، أظهر في أبيات عديدة من هذه اللزوميات نفسها إخلاصه لربه وتفضيله لنبيه محمد ﷺ على سائر الأنبياء وايثاره لدين الاسلام لسائر الأديان . وأبدى في سيرته وفي شعره تقوى لاشك فيها وحث الناس عليها وأما زهده في الدنيا وإحسانه الى الغير فهذا أمر لامزيد عليه فيه وكذلك لايزال يذكر الله تعالى ويمجده وهو يقتنع بوجود الله اقتناعاً فطرياً وجدانياً لايتكلف البراهين على إثباته وأنه في كثير من أبياته وصف الله كما

وصف نفسه وكما وصفه رسوله الى حدّ أن عقيدته تُشبه أحياناً عقيدة من اتبع طريقة السلف .

ان هذا التناقض الذي لايظهر في اللزوميات فحسب ولكنه في جميع كتبه عامة كان ، فيما أعتقد ، مقصوداً فلماذا قصده ؟ هذه هي المسألة التي نريد الآن أن نذكر أهم اختلاف الناس فيها .

* * *

ذهب بعض العلماء إلى أن علة هذا التناقض توجد في تطور أبي العلاء الفكري. انه كان ، على مايزعمون ، في أول أمره ملحداً كافراً ثم انه رجع الى الايمان في آخر عمره فتاب وأناب . اننا فيما يخصنا لانعتقد بصحة هذه الفرضية وان جازت عقلاً . فان أبا العلاء أظهر شكه الفلسفي من أول شبابه لما اشتكى في مرثية أبيه جهله لأمور الغيب ولمصير الروح بعد الموت ، كما أنه عبر عن هذه العواطف نفسها من الشك والتشاؤم واللادرية في قصائد يوجد فيها مايدل على أنها من آخر ماظم .

ذهب قوم آخرون الى القول بأن علة هذا التناقض توجد في تقية أبي العلاء وفي كتمانه . قالوا انه كان ملحداً في باطنه ولكنه خشيةً من عقاب الفقهاء تستر وراء تلك العبارات الايمانية والمظاهر الاسلامية . ولكننا أيضاً لانتفق هذه الفرضية بالقبول ولا نعتقد بأن أبا العلاء التجأ الى التقية بمعناها الاصطلاحي فان جرأته حينما يتكلم عن الديانات ورجالها تدل على صراحة لاتحوجه الى تقية الغلاة ولكنه في ذلك اضطر ، وهو في ذلك متألم أشد التألم ، الى أن يذهب من مذهب المجاز في ابداء كثير من آرائه لما تخالف مخالفة تامة ماانفق الناس عليه وربما كان في ذلك كله أكثر خشية من الاضرار بالغير منه بنفسه اذ لايكون عامة الناس مستعدين لفهم فلسفته حق الفهم . فجاز لنا أن نقول ان المعري في لزومياته قصد معاني اكثر مما ابداه صراحة .

فجاء قوم آخرون زعموا أنهم اكتشفوا سر باطنه واقترحوا لتعليل ذلك التناقض الذي أشرنا اليه علةً اخرى فقالوا : ان أبا العلاء المعري كان مخلصاً في اظهاره لدينه وابدائه لتقواه كما انه كان مخلصاً في حثه الناس على التمسك بدينهم

لما كان في ذلك لعامتهم من فائدة ومنفعة . ولكنه في الحين ذاته كوّن لنفسه وللخاصة فلسفة إلهية مبينة على الوجدان والعقل اكثر منها على النقل أدى به اليها اجتهاده الخيالي غير اجتهاد الأصولي المرتبط بشروطه وهي فلسفة لاتخالف الديانات ولا تتفوقها ولكنها ترمي الى جمع أسمى العواطف الدينية التي يشترك فيها البشر .

إن هذه الفلسفة الالهية تدعو إلى الايمان الواحد المطلق برب واحد حكيم مدبر للأمور على ما يشاء إيماناً وجدانياً فطرياً يحسّ به كل إنسان في صميم فؤاده فيتساوى فيه جميع المؤمنين ثم إن هذه الفلسفة الالهية تكون أخلاقية أكثر منها عبادية أنها تفضل على العبادات الشكلية روح التعبد والدين فتنحو نحو تهذيب البشر ونحو تحويلهم عن الطمع في الدنيا إلى الزهد فيها وعن الظلم إلى الانصاف وعن التعصب إلى التسامح وعن التفاضل إلى التساوي وعن التباغض إلى التحابّ وعن اختلاف الكلمة إلى توحيدها والاتفاق والتضامن .

* * *

فاذا كانت تلك فلسفة أبي العلاء على ما يقولون فما هي العوامل التي حملته على التفلسف بها وما هي المصادر التي ألفته إلى مثل هذه الآراء الالهية والاجتماعية؟ علينا أن نشير الآن بغاية الايجاز إلى اختلاف الناس في ذلك وأن نذكر أهمّ النظريات التي اعتمدوا عليها ، فهم في ذلك على قسمين : من نسبه إلى الزهد الهندي ومن نسبه الى مذهب الباطنية .

ان أول من نسبه الى الزهد الهندي هو أبو الفداء المؤرخ المشهور الذي قال عنه في تاريخه أنه تمذهب بمذهب الهنود فيما يتعلق بنباتيته . فحذا حذوه اسماعيل بن كثير في بدايته وأضاف الى ذلك أنه شككه راهب في دينه . وكذلك كثير من المستشرقين ، وفي مقدمتهم Von Kremer فون كرمر ، ظنوا أن فلسفة أبي العلاء تلوّنت بالفلسفة الهندية خصوصاً فيما يتعلق بالزهد ورحمة الحيوان والنباتية وفلسفة العدم . فرد على هذه النظرية رداً ما الاستاذ العلامة Nicholson نيكلسون والاستاذ البحاثة Massignon حينما تساءل عن إمكان وجود علاقات فكرية بين الحلاج وصوفية الهند .

نعم يجوز لنا أن نظن أن أبا العلاء أخذ بعض الآراء الهندية التي كانت شائعة في أيامه ولكنه اخذها متفرقة لا عن مذهب فلسفي معين . ولا غرو في ذلك فان الصلة بين الهند وبلاد العرب اشتدت في زمانه على يد محمود ابن سبكتكين ، ولكن المسلمين في مختلف الاقطار وإن تعجبوا من عجائب الهند ودهشوا من غريب عوائد سكانها ، فانهم ما كانوا اطلعوا على عقليتهم الفكرية اطلاعاً مكنهم من التفلسف بفلسفتهم ومن التخلق بأخلاقهم . انما اتسعت هذه العلاقات الثقافية فيما بعد القرن السابع للهجرة ففي هذا الزمان المتأخر نفسه افترئت على أبي العلاء هذه التهمة التي أشرنا إليها وهي تهمة تقليده لفلسفة الهنود .

وأما النظرية الثانية التي أشرنا إليها فهي نظرية من ظن أن أبا العلاء تأثر بمذاهب الباطنية ، إن هذه النظرية قد انتشرت انتشاراً ما منذ عدة سنوات في الشرق وفي الغرب وأول من أيدها هو الاستاذ بندلي جوزي من جامعة باكو في كتابه عن الحركات الفكرية في الاسلام ؟ يذهب الاستاذ بندلي جوزي إلى أن ما نراه في اللزوميات من حرية الفكر والاشتراكية والسامية والمساواة الاجتماعية قد سببه تأثير مذاهب الباطنية فيها . ثم ان الاستاذ Massignon ماسينيون هو الذي لفت أنظار العلماء بصفة علمية إلى أوجه الشبه بين فلسفة المعري وبين مذاهب الباطنية خصوصاً فيما يتعلق بتشاؤمه وشكه الفلسفي . ثم أن الاستاذ Bernard Lewis الذي كان من جملة من أحس بضرورة دراسة الحركات الباطنية ، الف كتاباً للتحري عن أصلهم أشار فيه إلى تأثير الاسماعيلية في أبي العلاء وغيره من كبار الشعراء مثل عمر الخيام . ثم أن الاستاذ عمر فروخ في مؤلفه القيم عن حكيم المعرة بحث عن العلاقات بين فلسفة أبي العلاء وبين مذهب الحاكمية فان هذا المذهب ، كما يُعلم ، تكون في زمان أبي العلاء وتفرع عن مذهب القرامطة .

ولا غرو في ذلك فان مذاهب الباطنية ، أيام أبي العلاء قد انتشرت وتوطدت في مختلف أقطار العالم الاسلامي فاحتك أبو العلاء في كثير من دعاتهم واطلع على بعض كتبهم ، وان لم يعتنق مذهب فرقة من فرقهم .

فانه خصص أبياتاً كثيرة من اللزوميات لمناظرتهم عاب عليهم فيها أموراً شتى تدل على أنه تبرأ منهم فعاب على النصيرية قولهم بالتناسخ وعلى الحاكمية عبادتهم للحاكم بأمر الله وعلى القرامطة إباحتهم للمنكرات وطمعهم في الملك .

اننا ، وهذا مما لاشك فيه ولا ريب ، نلاحظ مطابقة غريبة بين بعض أفكاره وبين بعض آراء الباطنية : منها قوله باتباع العقل اتباعا كاد أن يكون مطلقاً وتفضيله إياه على النقل والاخبار ، وزهده المتطرف وغير ذلك من الآراء ، كما أنه شاركهم في معرفتهم بالفلسفة اليونانية التي تكثر عناصرها في اللزوميات وفي غيرها .

ولكننا بالرغم من ذلك كله ليس في استطاعتنا أن نحكم بانتساب أبي العلاء إلى مذاهب الباطنية حكما قاطعاً ما دامت معظم كتبهم مجهولة أو غير منشورة ومنها بصفة أخص كتب الشيخ المؤيد في الدين داعي دعاة الاسماعيلية في أيام المستنصر والذي راسل أبا العلاء في مسألة النباتية ، والذي له عدة كتب منها مجالسه التي أبدى فيها آراء تشبه آراء أبي العلاء في اللزوميات .

ليس في نيتنا أن نعالج هذا الموضوع معالجة مطولة فاكتفينا بالاشارة إلى هذه النظرية لكونها شاهدة من شواهد اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء .

***

ونقول في الختام : ان أبا العلاء في لزومياته يذكر اختلاف الناس وتنازعهم في شؤون الدين والدنيا استهزأ لاختلاف الفقهاء في التحليل والتحريم وفي الاستحسان والاستنكار كما أنه استهزأ لاختلاف المتكلمين في نظرياتهم فانه لو كان في إمكانه أن يشاهد من عالم الغيب اختلاف الناس في شأنه بعد موته لاضاف أبياتاً جديدة إلى لزومياته سخر فيها من هذا الاختلاف الجديد سخرية يمتزج فيها تهكمه المرّ وشفقته الانسانية وتسامحه الشامل وعواطفه السامية التي تجعله فخراً لجميع البشر فعلينا أن نفوض سر باطنه إلى الله تعالى وأن نكتفي بالاعجاب من تفنن فكره ومهارة فنه وإخلاص دينه والسلام .

هنري لاوست